# الاستبداد والعصبيات: قصة سورية

## بقلم: د.مصطفى حسين بطيخة

**تم نشر المقال التالي في 1 حزيران 2025 في جريدة زمان الوصل الالكترونية**
:https://www.facebook.com/share/p/1BsdXQWTZ3/

في مقالي الطويل بعنوا ن (**الإسلام والعدالة**) في كتاب (**الإسلام وقضايا العصر**) تحدثت عن الاستبداد وأنواعه، فقمت بداية بتعريفه بأنه نفي الآخر ومن هذا التعريف قسمت الاستبداد إلى أنواع ثلاثة:

*الأول: استبداد على مستوى الفرد كنفي الرجل للآخر المرأة ونفي الغني للآخر الفقير ونفي الرأي للرأي الآخر.

*الثاني: استبداد على مستوى الأمة وفيه نفي الحاكم للآخر الشعب.

*الثالث: الاستبداد العالمي، كنفي دولة قوية لدولة أضعف منها.

وقد خلصت في نهاية مقالي إلى أن أخطر الاستبدادات هو الثاني، لأنه بالضرورة سيؤدي إلى الاستبدادين الأول والثالث، بإنشاء شعوب غير حرة، تحولت إلى غنم يستطيع أي أحد أن يسوقهم إلى المرعى أو يذبحهم في نهار اليوم التالي.

ودائمًا ما يعتمد المستبد على العصبيات التي تحدثت عنها في مقالي "**العصبيات القاتلة والشرق الأوسط**" في جريدة زمان الوصل. وقد عرفت العصبية بأنها جماعة من لون واحد ينتمي أفرادها لحدث تاريخي ديني أو اجتماعي أو مناطقي أو قومي أو عرقي. وقد بينت في المقال أن صراع العصبيات عنيف وقاتل، لذلك دائمًا ما يشكل المستبد عصبيته القاتلة التي يدعي أنه ينتمي إليها، بينما هو في الحقيقة يستعملها لتحقيق أهداف سياسية أو اقتصادية.

ولكن يبقى سؤال يطرح نفسه: **كيف تشير إلى شخص ما أنه عصبوي متطرف؟** والجواب أنه عندما يقوم هذا الشخص بالقتل أو بالفرح أو إيجاد مبرر لقتل أو اضطهاد نساء وأطفال ومدنيين عزل ينتمون لعصبية أخرى، فهو عصبوي متطرف حتى ولو حاول الرسم بالكلمات غير ذلك، فهو بادعائه عدم التطرف كمن يرسم على الماء.

لقد قال القرآن الكريم قوله حول فكرة تشجيع المستبد الفاسد لنشوء العصبيات (الشيع وفق التعبير القرآني) واستخدامها في قتل الأبرياء، بقوله تعالى: (**إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ**). وقد كان سيدنا موسى عليه السلام من شيعة فرعون أو عصبيته يقتل لمجرد انتمائه لهذه العصبية (**وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِن عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِن عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ**). لقد أراد الله أن يقول لنا أن ارتكابنا لما حرمه كقتل نفس بغير حق وبدون محاكمة لمجرد انتمائنا لعصبية مختلفة عنها هو عمل شيطاني بامتياز.

لقد كان تاريخ العالم القديم والحديث شاهدًا على حراك عصبيات قاتلة لغايات غير معلنة، من مثل إبادة عرق الهنود الحمر ومن ثم قتل عرق السود من قبل عصبية العرق الأبيض الغربي في دعوى ظاهرها تفوق عرقي إلهي وباطنها غايات اقتصادية إقطاعية. أما الحرب الأهلية في الشام عام 1860 بين العصبيات الطائفية الدرزية والسنية والمسيحية، والتي شملت مذابح في ما يناهز 300 قرية، فقد كان ظاهرها طائفي أما وقودها الحقيقي غايات سياسية تتمثل في الصراع بين أوروبا والدولة العثمانية. وفي القرن العشرين – قرن القتل باسم العصبيات القومية بامتياز – حدثت مذابح الأرمن العام 1915 التي تجاوزت المليون خلال سنة واحدة (بمعدل 3000 في اليوم) من قبل عصبية قومية تركية، ثم لحقتها حمى العصبيات القومية الألمانية واليابانية والإيطالية في الحرب العالمية الثانية

لأهداف استعمارية اقتصادية. ولاننسى العصبية اليهودية التي اضطهدتها عبر التاريخ العصبية المسيحية الغربية، ثم زرعتها في مشرقنا بحجة الحق التاريخي لشعب الإله يهوه، وما زرعها هنا إلا ابتزاز سياسي واقتصادي من الغرب للبحر العصبوي السني الذي يحيط بها.

لقد حاول العالم بعد الحرب العالمية الثانية جاهدًا أن يحمي نفسه من جنون العصبيات القاتل في استهداف المدنيين العزل بإنشاء الأمم المتحدة ودعم جمعيات حقوق الإنسان وإنشاء المحاكم كمحكمتي العدل والجنائية الدوليتين، إلا أن المجازر العصبية ما تزال مستمرة، وبعضها يمكن أن يكون علامة فارقة لنتعلم منها. لقد أدى إسقاط طائرة الرئاسة في رواندا العام 1994 إلى تفجر حمى العصبيات القبلية بين الهوتو والتوتسي ليذهب ضحيتها 800 ألف إنسان خلال 100 يوم فقط، أي بمعدل 8000 إنسان في اليوم الواحد، كان صراع هاتين العصبيتين واجهة لصراع غربي على القارة الأفريقية.

كثيرة هي المجازر العصبوية وصولًا إلى المقتلة السورية العام 2011 المتمثلة في مقتل 600 ألف شخص بمعدل 100 سوري في اليوم الواحد، بينهم 60 ألف طفل وامرأة، أو بمعدل 5 أطفال و5 نساء في اليوم الواحد، وأكثر من 100 ألف مغيب قسري ونزوح أكثر من 7 ملايين، وكلفة باهظة لإعادة الإعمار تقدر بأكثر من 400 مليار دولار. هي جريمة تمت تحت أنظار أمم متحدة تعاهدت ألا تعيد لذاكرتها جرائم المدنيين التي حدثت في الحرب العالمية الثانية. لقد اعتاد العالم على أن مجازر العصبيات عادة ما تكون سريعة وقصيرة المدة، أما أن يأتي زمن الإنترنت ونقل الأخبار السريع بشكل لحظي ويستمر العالم في مشاهدة مسلسل الجريمة السورية اليومي لمدة 14 عامًا متواصلة في صور قيصر وحفرة التضامن والكيماوي ونزول البراميل المتفجرة من السماء بدلًا من المطر ولا يقول كفى، فيعني أن الصراع الدولي في استعمال العصبيات القاتلة بلغ قمة انحطاطه.

لقد عملت الدول على تفادي تكرار مسلسل عصبياتها القاتلة، فأوروبا أقسمت ألا تسمح بعودة هتلر من جديد، ورواندا بعد إبادات 1994 أنهت عصبياتها وعززت اقتصادها حتى بلغ نصيب الفرد الواحد فيها 200 دولار شهريًا بعد أن كان لا يتجاوز 30 دولارًا، وعمل لبنان على العض على أصابعه لعدم تكرار اقتتال العصبيات الطائفية فيها لمدة 15 عامًا، على الرغم من محاولات النظامين الإيراني والأسدي على إعادة الاقتتال. **فهل نحن كسوريين حريصون على عدم تكرار المقتلة السورية؟ وكيف؟**

**إن لدى مؤسس الأسدية حافظ الأسد مفتاح الجواب على هذا السؤال. فلنسأل أنفسنا ما فعل حافظ الأسد ثم نفعل عكسه تمامًا.**

## ❖ *ممارسات الأسدية وعكسها لتجنب المقتلة السورية*

### *الديمقراطية والانتخابات*

قبل الأسد، كانت الأحزاب مجتمعة (وأقول مجتمعة لتعدد الأحزاب السورية والتي بلغت 8 أحزاب في انتخابات 1954) تشكل ما بين 30٪ حتى 60٪ من البرلمان السوري دون أغلبية لحزب واحد، أما المستقلون فكانوا يشكلون الباقي وبأغلبية تتجاوز ضعف أكبر كتلة حزبية. لقد حاول الشيشكلي وعبد الناصر تغيير المعادلة ولكن الشعب السوري أسقطهم سريعًا، وغادر الشيشكلي وعبد الناصر فورًا دون دم، على الرغم من معرفتهما أن باستطاعتهما الانتصار، ولكنهما يملكان شرفًا عسكريًا وطنيًا لا عصبويًا عندما يتعلق الأمر بالصدام مع الشعب، وعادت سوريا لحياتها البرلمانية النشطة مجددًا. عندما جاء حافظ الأسد، قام بحل الأحزاب التي لم ترض أن تنطوي تحت جبهته التي أسماها وطنية وتقدمية، وجعل نسبة المستقلين في برلمانه لا تتجاوز 25٪، وأعطى عصبته البعثية 65٪، ولباقي الأحزاب الموالية الفتات 10٪. وعندما حاول الشعب إسقاطه في انتفاضات عام 1979 قابله بالنار والقتل دون أن يحمل شرف حذاء الشيشكلي وناصر.

لذلك، فإن أي إلغاء للعملية الديمقراطية الحرة وما تنتجه من كيانات مدنية مستقلة تذيب العصبيات داخلها وتراقب الأداء الحكومي، وتشكيل عصبية تهيمن على البرلمان هو عودة للأسدية.

***التنمية المجتمعية***

قام حافظ الأسد بإهمال الحياة الخدمية في جميع المناطق السورية وتفقيرها، وجعل الخدمات متاحة في دمشق فقط، فقامت هذه المناطق بالنزوح إلى العاصمة وتشكيل أحزمتها العصبوية الطائفية أو المناطقية الفقيرة والعشوائية وغير المتحضرة والتي لا تنتمي بتنظيمها للمدينة بمكان. فعلى سبيل المثال، قام الأسد الأب وتبعه الابن بتعمد إفقار الساحل السوري الغني موقعًا وسياحة وزراعة وفيه ميناء سوريا الذي يستقبل ويودع العالم، كل ذلك ليُهَجِّرَ أبناءه إلى عشوائيات غير متحضرة كعش الورور والسومرية والمزة 86. كان الأسد يهدف إلى تشكيل أحزمة من عصبيته الطائفية مرتبطة به مباشرة اقتصاديًا ومجتمعيًا ومعيشيًا، موهمًا إياها أنه أنبوبة الأكسجين الوحيدة المتبقية لحياتها في أحزمتها المريضة بعد أن قطع عليها خط العودة لتستثمر في أراضيها الغنية في الساحل، كل ذلك ليتمكن من استثارتها بسهولة ضد العصبيات الأخرى عند انتفاضتها.

لذلك، فإن الاعتماد على تنمية المركز فقط أو مدينة بذاتها دون المناطق الأخرى إنما هو عودة للأسدية وعودة للأحزمة العصبوية.

***التربية والتعليم***

قام حافظ الأسد بتحويل المدارس والجامعات إلى ثكنات عسكرية لغسل الأدمغة منذ الصغر بحب القائد في جميع المراحل، فقام بإنشاء طلائع البعث وشبيبة الثورة والتدريب الجامعي، وكل ذلك إلزامي، وجميعها كانت تمارس إذلال الطلبة، كما كانت تهدف بالأساس إلى تشكيل كتلة شبابية مدنية عمياء لضرب المجتمع المدني ببعضه، كما روى ياسين الحاج صالح في مقاله "**حفلة لصيد الخونة**" حين اعتمد النظام على الآلاف من

اتحاد الطلبة لضرب قلة من المعتصمين المدنيين ضده العام 2005. لقد أراد الأسد أن يقول للعالم أن المدنيين يضربون المدنيين ولا علاقة له بذلك. من جهة أخرى، حاصر الأسد المعلمين برواتبهم المتدنية وقوانينه وهبط بهم إلى الدرك الأسفل من النار. أما التعليم العالي فقد هبط بمدرسيه أيما هبوط، فغاب الابتكار وغاب الإبداع. وللاستفاضة يمكن العودة إلى مقال سابق لي في زمان الوصل بهذا الخصوص.

وبالتالي، فإن العودة لغسل الأدمغة وتشكيل ثكنات تعليمية طائفية وعدم إنصاف المعلمين وفرزهم على قاعدة العلم والأخلاق معًا، فلا خير من معلم بلا علم ولا خير من معلم بلا أخلاق، دون ذلك كله عودة للأسدية.

***الجيش***

قام الأسد بتشكيل فرقة عصبوية خالصة من الطائفة العلوية لا يدخلها أحد من عصبية أخرى، وعرفت بداية بسرايا الدفاع ومن ثم أصبحت تعرف بالفرقة الرابعة، وهي مجهزة بأحدث الأسلحة. لم تكن هذه الفرقة لسوريا بل للأسد شخصيًا عند حاجته للقتل، احتاجها في مذبحة حماة وغيرها العام 1982 وكذلك بعد العام 2011. سيسجل التاريخ أن الأسد هو أول حاكم على مر العصور يكتب وبلا مبالاة على جدران المدن لمدة 14 سنة حتى لا ينسى الناس شعاره القاتل اللا منتمي: "**الأسد أو نحرق البلد**"، ولكن سوريا بقيت تردد كلام محمود درويش: "**نيرون مات، ولم تمت روما... بعينيها تقاتل**"، حتى احترق الأسد وبقيت سوريا.

لذلك، فإن تشكيل فرقة عسكرية عصبوية تأتمر لشخص وليس للشعب بسلطته البرلمانية المنتخبة ديمقراطيًا هي عودة للأسدية.

***الثقافة***

قام الأسد بتعميم ثقافة واحدة هي الثقافة الأسدية التي تمجده، فغاب عن المشهد الثقافي أدباء ومفكرون وكم كانوا كثرًا في سوريا. لقد أغلق المنتديات الفكرية وحرم دخول

المراكز الثقافية إلا لمن ثبت ولاؤه وفق دراسات أمنية. أما المفكرون الذين لا يسيرون معه فقد اعتمد معهم سياسة التجويع، فغير مسموح لدار نشر بالنشر لهم إلا بعد موافقة وزارة الإعلام التي تحجب موافقتها عنهم، فصار المثقفون متسولين يفكرون بلقمة عيشهم قبل القلم.

ولذلك، فإن أي سلطة لا تطبق حرية الثقافة والفكر والنشر هي عودة للأسدية.

***الاقتصاد***

قام الأسد بتدميره وتحويله إلى اقتصاد دولة فاسدة، فبعد جريمة تأميم الصناعات الوطنية الخاصة بعد العام 1963 الذي دمر الاقتصاد السوري المتميز والمنتج في المنطقة، قام الأسد الأب بجعل الدولة تدير الصناعة فأصبحت فاسدة وشركاتها مفلسة، كما أهمل القطاع السياحي وشروطه في بلد تحتوي أقدم مدن التاريخ ولم تأت حضارة إليها إلا وتركت فيها بصمتها وهي بلد تغزل بطبيعتها الخلابة كل من زارها، ولم يقم بدعم الزراعة فهجر الفلاحون أراضيهم إلى عشوائيات المدينة، ثم شارك طبقة التجار الفاسدين أو القوارين وفق الوصف القرآني، وأقام عليهم محمد مخلوف رقيباً يحاصصهم على كل قرش، أما الأسد الابن فقد ادعى أنه مع الاقتصاد الحر شرط أن ينطوي الجميع ضمن جبهته الاقتصادية -كما الجبهة الوطنية التقدمية لأبيه- ممثلة برامي مخلوف في الشام القابضة وإلا الإفلاس، لقد أنشأ الأسدان اقتصاد العائلة.

وبالتالي، فإن عدم تبني ودعم عودة الصناعات الخاصة والاستثمار في السياحة وتأمين شروطهما وعدم دعم الزراعة والاعتماد على التجارة فقط وإنشاء اقتصاد العائلة هو عودة للأسدية.

***الحالة الأمنية***

لقد أعلن الأسد قانون الطوارئ والذي يشمل الرقابة والاستيلاء على الأملاك الشخصية، وتقييد الحرية الشخصية والتوقيف لأجل غير مسمى وعدم السماح بحق الدفاع وتوكيل

المحامين في محاكم استثنائية لا يحق لأحد الطعن بقراراتها، وعدم السماح بملاحقة العناصر الأمنية أمام المحاكم. إن المختفين قسرًا منذ السبعينيات خير دليل على ذلك.

إن إعلان قانون الطوارئ لفترة غير محددة ودون موافقة البرلمان والاعتقالات دون السماح بحق الدفاع أمام محاكم مدنية لا عسكرية هو عودة للأسدية.

***المجتمع المدني والنقابات المهنية***

قام الأسد بتشكيل مجالسها كما شكل برلمانه من عصبية بعثية مراقبة أمنيًا فما عاد لها دور في حماية أعضائها ومصالحها.

وبالتالي، فإن عدم بناء المجتمع المدني الحر بنقاباته الحقيقية المنتخبة ديمقراطيًا هي عودة للأسدية.

***السياسات الخارجية***

لقد كانت مهمة حافظ الأسد شق الصف العربي وتدمير القضية الفلسطينية، فعندما اتحد العرب ضد العصبية الإيرانية السرطانية قام الأسد فورًا بعقد الاتفاقات معها.

وبالتالي، فإن الابتعاد عن البعد العربي لسوريا هو عودة للأسدية.

كثيرة هي الأسديات في حياتنا والتي حولت سوريا إلى مملكة الصمت المريضة، ولا مجال للهرب من جنون العصبيات وعدم تكرار المقتلة السورية إلا بنفي هذه الأسديات ونفي تطبيقاتها. وأول هذه التطبيقات التي يجب نزع فتيلها هو القتل والاضطهاد ونفي الآخر باسم العصبية، وهي أول رسالة من الله لسيدنا موسى عليه السلام ومنه للبشرية.